البديل

تأليف : سلمى لاغرلوف
رسوم : ماي فاغربيرغ



دار المنى

Second Arabic edition 2002

Arabic text: Sukainah Ibrahiem

Originally published in Swedish by
Bonnier Carlsen Bokförlag under the title:
"Bortbytingen"
Printed in Hungary
ISBN 91 88356 45 0

Dar Al-Muna
Box 127
S-182 05 Djursholm
Sweden



البديل

تأليف : سلمى لاغرلوف

رسوم : ماي فاغربيرغ

النص العربي بقلم: سكينة ابراهيم





دار المنى

كـانت أنثـى الـترول تسلك طريـق الغابـة وهـي تحمـل ابنهـا الرضيع على كتفها بعـد أن وضعتـه داخل سلة مصنوعـة مـن لِحاء شجر القضبان. وعلى الرغم من أن الترول الرضيـع كـان ضخماً وقبيحـاً، لـه شـعر خشـن مثـل الأسـلاك ، وأسـنان حـادّة كالمسامير، ومِخلب فـي إصبعـه الصغـير، إلا أن أمـه كـانت تعتبره أجمل طفل في هذا العالم.

وصلت أنثى الترول بعد فترة من الوقت إلى بقعة فسيحة في الغابـة، يمتـد عبرهـا دربٌ وعـرٌ محفـوفٌ بأغصـان الأشـجار وجذوعها، ووقع نظرها فيه على مزارع وزوجـه كانـا يسلكانه وهما يمتطيان حصانيهما.

ما كادت أنثى الترول تلمح الزوجين، حتى قررت أن تتسـلل رجوعاً إلى قلب الغابة لئلا يراها الإنسيان، لكنها غيرت رأيهـا عندما لاحظت أن زوج المزارع كـانت تحتضـن طفـلاً صغيراً بين ذراعيها.

"لابدّ لي أن أعرف إذا كان جمـال الطفـل الإنسـي يُضـاهي جمال صغيري،" تمتمت أنثى الترول وهي تخبئ نفسها وراء أجمة بندق كبيرة عند جانب الدرب.

ولكن، عندما مرّ الفارسان بالقرب منها، كانت لهفتهـا علـى رؤية الطفل الإنسي عظيمة لدرجة أنها مطّت نفسها إلـى الأمـام كثيراً فأجفلت الحصانين اللذيـن أخافهمـا منظـر الـرأس الأسـود الضخم، فقفزا عالياً وفرّا هاربين بينمـا تعـالى صـوت المـزارع وزوجه بالصراخ لأنهما كادا يفلتان زمام حصانيهمـا ويسـقطان أرضاً.

زعقت أنثى الترول غاضبة، لأن الفرصة لم تتـح لهـا سـوى إلقاء نظرة عابرة على الطفل الإنسي. غير أنها عادت وابتهجت عندما وقعـت عيناهـا علـى طفـل صغير انطـرح علـى الأرض بالقرب من قدميها بينما تعالى صوته بالبكاء فزعاً.



نعم، كان الطفل الصغير قد سقط من بين ذراعي أمه عندما جمح الحصانان، وحطّ على الأرض سليماً بين كومة من أوراق الأشجار اليابسة. وما إن انحنت أنثى الترول على الرضيع الإنسي حتى توقف عن البكاء حالاً وضحك، ثم مدّ يديه وأخذ يجذب لحيتها السوداء.

تأملت أنثى الترول الطفلَ الإنسي بذهول. تفحّصت أصابعه النحيلة ذات الأظافر الوردية اللون، نظرت إلى عينيه الزرقاوين الصافيتين، وإلى فمه الرقيق الأحمر. تحسست شعره الناعم، وداعبت خده بيدها، وازدادت ذهولاً على ذهول، لأنها لم تستطع أن تفهم أبداً كيف يمكن أن يوجد في هذا العالم طفل بهي وناعم ورقيق إلى هذا الحد.

فجأة، جذبت أنثى الترول سلة لِحاء شجر القضبان من على ظهرها، ونحّت وليدها منها، ووضعته إلى جانب الطفل الإنسي، وعندما رأت الفرق بينهما، أخذت تولول.

أثناء ذلك، كان المزارع وزوجه قد استعادا سيطرتهما على حصانيهما واستدارا عائديْن بحثاً عن طفلهما. ومع أن أنثى الترول استطاعت سماع وقع حوافر الحصانين وهما يعودان أدراجهما، إلا أنها لم تكن قد أشبعت ناظريْها من مرأى الطفل الإنسي، فبقيت جالسة في مكانها حتى أصبح والداه على مقربة من الدرب.

لم يمض وقت طويل حتى كانت أنثى الترول قد توصلت إلى قرار حاسم. فسارعت حالاً إلى وضع الطفل الإنسي في سلتها، ثم قذفتها فوق كتفها، وهرولت موغلة في الغابة، تاركة ابنها على الأرض عند جانب الدرب.

ما كادت أنثى الترول تختفي حتى وصل المزارع وزوجه. كان الزوجان القرويان يتميزان بالوسامة، وكانا يملكان مزرعة كبيرة في منطقة الوادي الخصيب تحت سفح الجبل، إلا أنهما رغم مضي عدة سنوات على زواجهما لم يرزقهما الله إلا بذلك الطفل فقط، ولذلك كانا قلقين جداً عليه ومتلهفين على استعادته سالماً.



تمكّنت زوج المزارع التي سبقت زوجها من لمح الطفل قبله. ومع أنه كان ينبغي لها أن تعرف أي نوع من المخلوقات هو بسبب صراخه الرهيب، إلا أن خوفها العظيم على صغيرها الوحيد خشية أن تكون السقطة قد قتلته، أعماها عن التفكير بأي شئ آخر سوى:

"الحمد لله إنه على قيد الحياة!"

"هاهو صغيرنا!" قالت لزوجها، وهي تترجل من على حصانها وتسرع نحو الترول الرضيع.

وبينما تابع المزارع تقدّمه، انحنت زوجه على طفلها وأخذت تتفحصه، ثم قالت وهي تقلّب الترول الصغير يمنة ويسرة :

"ولكن طفلي ليس لديه أسنان كالمسامير. وطفلي ليس لديه شعر خشن مثل فراء الخنزير."

أردفت معترضة بصوت عالٍ يملؤه الهلع : "وطفلي ليس لديه مِخلب في إصبعه الصغير!"

سمع المزارع زوجه، وظن أنها قد أصيبت بالجنون، فقفز بسرعة من على صهوة جواده.

"انظر إلى هذا الطفل وأخبرني لماذا يبدو غريباً جداً!"

قالت زوج المزارع وهي تناول الترول الرضيع لزوجها الذي ما إن وقعت عيناه على الصغير حتى بصق ثلاث مرات وطرحه أرضاً.

هتفت المرأة : "ماذا تفعل بحق الله؟"

فصاح المزارع : "إنه طفل من أطفال جماعة الترول! إنه ليس ابننا."

تسمّرت زوج المزارع أرضاً وقد أعجزتها الحيلة عن استيعاب ما قاله زوجها.

ثم مالبث المزارع ان صاح مردفا : "ألا ترين أنه طفل بديل؟ لقد كان جماعة من الترول ينتظروننا هنا عندما جمح بنا الحصانان، ثم اختطفوا طفلنا وتركوا لنا واحداً من أطفالهم مكانه."

سألته زوجه : "أين هو طفلنا إذن؟"

"لقد سرقه جماعة الترول!"

أخيراً، أدركت زوج المزارع المصيبة التي ألمّت بهما، واكتسى وجهها بلون شاحب مخيف، حتى ظنّ زوجها أنها على وشك الموت في تلك اللحظة وفي ذلك المكان.

فقال لزوجه محاولاً تسكين روعها : "لا يمكن أن يكون ابننا بعيداً جداً عنّا، يجب علينا أن نبحث عنه في قلب الغابة."



وهكذا، عقل المزارع الحصانين، وتوجّه نحو الأحراش. ونهضت زوجه من مكانها وهمّت باللحاق به، ولكنها في نفس الوقت لاحظت أن الحصانين كانا على مسافة قريبة من الموضع الذي انطرح فيه الترول الصغير، بحيث يستطيعان رفسه بكل سهولة، خصوصاً وأن قربهما منه أصابهما بهياج شديد.

وعلى الرغم من أن مجرد فكرة لمسها للبديل مرة أخرى كانت كفيلة ببعث الرعدة في أوصالها، إلا أنها التقطته من على الأرض ونقلته إلى مكان أكثر بُعداً، لا يستطيع الحصانان بلوغه.

"هاهي الخُشْخيشة التي كان صغيرنا يلعب بها عندما تركتِه يقع منك!" صاح المزارع . فهرعت زوجه إليه حالاً، وأوغلا معاً في الغابة، لكنهما لم يعثرا أبداً على ابنهما أو على أنثى الترول، وسرعان ما أرغمهما حلول المساء على العودة إلى حصانيهما.



بكت زوج الفلاح وعصرت يديها. وكزّ زوجها على أسنانه، ولم يقل لها كلمة واحدة يواسيها بها لأنه كان حانقاً عليها كثيراً بسبب تهاونها في طريقة حمل ابنهما الوحيد حتى أفلت من بين ذراعيها. "كان ينبغي لها في جميع الأحوال أن تحمل صغيرنا بمزيد من الحرص." قال محدثاً نفسه، ولكنه عندما رأى تعاستها العظيمة، لم يطاوعه قلبه على توبيخها.



وبينما همّ المزارع بمساعدة زوجه على امتطاء صهوة حصانها، تذكرت المرأةُ البديلَ فجأة فقالت لزوجها: "ماذا سنفعل بالترول الصغير؟"

فأجابها : "حسناً، أين هو؟"

"إنه هناك تحت تلك الأجمة."

قال المزارع وهو يضحك بمرارة : "ذاك مكان جيد له"

"أوه، ولكننا لا نستطيع تركه وحده في هذا القفر الموحش."

"بلى، نستطيع هذا بدون شك،" أجاب الزوج وهو يضع قدمه في ركاب السرج.

رأت زوج المزارع أن زوجها قد يكون على حق. فهما ليسا بحاجة إلى العناية بطفل من أطفال جماعة الترول. وهكذا، تركت حصانها يخبو بضعة خطوات، ثم شعرت أنها غير قادرة على متابعة طريقها. فانبرت قائلة : "مهما كان الأمر، ليس هذا البديل إلا طفلاً صغيراً، وأنا لا أستطيع تركه هنا ليصبح طعاماً للذئاب."

فأجاب المزارع : "إنه بخير حيث هو."

لكنها قالت : "إذا لم تناولني إياه الآن، سأضطر إلى العودة ليلاً من أجله."

تمتم المزارع لنفسه : "أرى بكل وضوح أن جماعة الترول لم يكتفوا باختطاف ابني، بل قلبوا عقل زوجي رأساً على عقب." لكنه مع ذلك ناول الطفل لزوجه لأنه كان يُكنّ لها حباً عميقاً.

لم يُقبل اليوم التالي إلا وكانت المنطقة كلها على علم بمصيبة الزوجين، فتهافتت عليهما جميع العجائز المحنّكات والحكيمات ليعرضن النصيحة.

قالت إحدى العجائز : "يجب على المرأة التي يوجد في بيتها طفل بديل أن تضربه بقضيب كبير من الخيزران."

سألتها زوج المزارع : "وما الذي يستدعي معاملته بمثل هذه القسوة؟ قد يكون هذا الطفل قبيحاً، لكنه لم يرتكب أي جرم يستحق عليه العقاب."

"صحيح، ولكنك إذا جلدت الترول إلى أن ينزف منه الدم، ستأتي أمه على جناح السرعة لتخلّص ابنها ولتعيد لك ابنك. وأنا أعرف الكثير من الناس الذين استعادوا أولادهم المخطوفين بهذه الطريقة."

"نعم، ولكن أولئك الأطفال لم يرجعوا أحياءً،" أضافت عجوز أخرى. وفي نفس الوقت شعرت زوج المزارع أنها لن تقدر أبداً على إلحاق الأذى بطفل بريء.



بعد ذلك، وعندما أصبحت المرأة هي والبديل وحدهما في البيت، لوّعها حنينها الشديد لطفلها، حتى حارت في ما ينبغي عليها فعله.
قالت لنفسها : "ربما، يجب علي أن أطبّق ما نُصحتُ به، رغم كل شئ." ولكنها لم تجد القدرة على فعل ذلك.
في نفس تلك اللحظة، دخل المزارع البيت وهو يحمل قضيباً من الخيزران بيده، وأرسل يطلب إحضار البديل إليه. فأدركت زوجه أنه قد قرر إتّباع نصيحة المرأة العجوز، وأنه ينوي ضرب الترول الصغير أملاً باستعادة ابنه.
"قد يكون من الأفضل لنا أن أدعه يضربه." فكرت زوج المزارع. ولكنها ما إن رأت زوجها يهوي بالقضيب على الطفل، حتى هرعت إليه وتشبثت بيده وصاحت متوسلة:
"لا، لا تضربه، لا تضربه!"
"يبدو لي أنك لا تريدين استعادة ابننا،" صاح الزوج وهو يدفعها بعيداً عنه ليحرر نفسه من قبضة يدها.

قالت زوجه : "طبعاً أريد استعادته، ولكن ليس بهذه الطريقة."
رفع المزارع ذراعه عالياً، استعداداً لضرب البديل مرة أخرى،. غير أنه ما كاد يهوي بها عليه حتى كانت المرأة قد رمت نفسها فوق الصغير، متلقية ضربة قضيب الخيزران بدلاً منه.

صاح المزارع : "يا رب السماء! لقد فهمت الآن ما الذي ترمين إليه: إنك عازمة على جعل ابننا يُمضي بقية حياته مع جماعة الترول."

وقف الرجل بلا حراك وانتظر ، لكن زوجه لم تتزحزح من مكانها، وظلت على أهبة الاستعداد للدفاع عن الترول الصغير.
عندها، رمى المزارع بالقضيب أرضاً، وغادر البيت ساخطاً وحزيناً.





وهكذا..

تعاقبت على زوج المزارع أيام من الحزن وأيام من الشقاء. نعم، قد يكون من الصعب بما فيه الكفاية على أية أم أن تفقد طفلها، ولكن أهناك شئ أكثر قسوة عليها من أن يُستبدل طفلها الوحيد بطفل آخر؟ إن هذا الحدث سيجعل لوعتها على صغيرها لوعة أبدية، لا تعرف معها طعماً لراحة النفس وسلامها.

وفي ذات صباح قالت المرأة لزوجها : "لا أعرف ما هو نوع الطعام الذي يجب أن أطعمه للبديل، إنه لا يرغب في تناول أي طعام أقدمه له."

أجابها زوجها : "لا عجب في هذا، فجماعة الترول يأكلون الضفادع والفئران."

"أتعني أنه ينبغي لي اصطياد الضفادع له؟"

"لا، طبعاً لا، فلا شئ أفضل من أن يتضور جوعاً حتى الموت."

مرّ أسبوع كامل من غير أن تستطيع زوج المزارع إقناع البديل بتناول الطعام. ومع أنها أغرته بمختلف أنواع الأغذية الشهية التي يمكن أن يتخيلها المرء، ظلَّ الصغير يبصق كل ما حاولت إلقامه إياه من مأكولات.

وفي ذات ليلة، تسللت الهرة إلى البيت وهي تحمل جُرذاً في فمها. فما كان من زوج المزارع إلا أن انتزعت الجُرذ من الهرة وألقته إلى البديل ثم غادرت الغرفة على عجل حتى لا تراه وهو يلتهمه.

عندما رأى المزارع أن زوجه قد بدأت بالفعل تصطاد الضفادع والعناكب لإطعام الترول الصغير، شعر بالنفور منها حتى صار من المستحيل عليه توجيه كلمة لطيفة إليها. لكن الأمر لم يقف عند هذا الحد، لأن الخدم أنفسهم بدءوا يعصون أوامر سيدتهم ويعاملونها بقلة احترام، بينما تظاهر زوجها بعدم ملاحظتهم. عندها أدركت زوج المزارع أنها إذا استمرت تدافع عن البديل سيغدو كل يوم من أيام حياتها يوماً حافلاً بالأسى والعذاب، رغم أنه كان من الواضح أنها كلما قاست الأمَرّيْن في سبيل الترول الصغير، ازدادت تمسكاً بحمايته أكثر من ذي قبل.



مضت على هذه الحادثة سنتان. وفي صباح يوم من الأيام كانت زوج المزارع جالسة في بيتها وحيدة، ترقّع الثقوب التي في ملابس البديل البالية، ثقباً تلو ثقب. "يا حسرتي،" قالت لنفسها وهي تتابع عملها. "إنها ليست حياة مفروشة بالورود هذه الحياة التي تضطرني إلى الاهتمام بطفل غير طفلي." ومع أنها خاطت وخاطت، إلا أن رؤيتها لتلك الثقوب الكبيرة والكثيرة جعلت عينيها تترقرقان بالدموع.

فما كان منها الا أن هتفت : "هناك شئ واحد أعرفه، وهو أني لو كنت الآن أرقع سترة ابني أنا، لما حاولت إحصاء عدد الثقوب التي فيها. إن هذا البديل لا يجلب لي إلا الحزن."

ثم أردفت: "ربما، ربما سيكون من الأفضل لي أن آخذه إلى مكان موغل جداً في الغابة، حتى يصبح من المتعذر عليه أن يجد فيه طريقه إلى البيت من جديد، ثم أتركه هناك، ولكني لست مضطرة إلى تكلّف كل هذا العناء للتخلّص منه ، فأنا إذا حاولت التغافل عنه وإبعاده عن ناظري للحظة قد يغرق في البئر أو يحترق بنار المدفأة، أو قد يعضه الكلب أو يركله الحصان.

نعم، ليس هناك شيء أسهل من التخلص منه وهو على ما هو عليه من طيش وتهور. وكل مَن في هذه المزرعة يكرهه، ولو لم يكن برفقتي دائماً، لوجد أحد الأشخاص الفرصة المناسبة ليزيحه من دربنا."

إزاء هذه الأفكار غادرت المرأة مجلسها، ومشت قُدماً نحو الترول الصغير الذي غفا في إحدى زوايا المكان، ثم انحنت فوقه وأخذت تحدق به. كان البديل قد أصبح أكثر ضخامة من ذي قبل، بل وأكثر بشاعة من أول يوم رأته فيه. إذ استطال فمه حتى أصبح مثل الخرطوم، وقسا حاجباه حتى صارا مثل فرشاتين خشنتين، وغلظت بشرته حتى غدت مثل قطعة من الجلد.

لكنها رغم ذلك قالت : "أظن أنه علي متابعة ترقيع ملابسك والاعتناء بك، فهذا هو أقل ما يمكنني تقديمه لك. نعم لقد أصبح زوجي ينفر مني، وبات عمال المزرعة يحتقرونني، والخادمات يهزأن بي، والهرة تنفخ علي كلما رأتني، والكلب يزمجر ويكشّر عن أنيابه، وكل ذلك بسببك. ولكني أستطيع تحمل الازدراء الذي يعاملونني به، غير أن أسوأ ما في الأمر هو أني كلما نظرت إليك تحرّقت شوقاً إلى طفلي. آه، يا حسرتي عليك يا حملي الوديع، أين أنت الآن؟ أتراك الساعة مُلقى فوق الطحالب وأغصان الأشجار مع تلك المرأة الشريرة؟"



في تلك اللحظة سمعت زوج المزارع الباب يُفتح، فعادت بسرعة إلى مجلسها، ورأت زوجها يقبل عليها متهلل الأسارير، بل ولاحظت أنه شرع يخاطبها بلهجة بدت أكثر لطفاً مما درج عليه منذ مدة.

"علمت أنه يوجد سوق في القرية اليوم. ما رأيك؟ أترغبين في الذهاب إليه؟"

أسعد الاقتراح زوج الفلاح، وأجابته بأنها تحب حقاً ارتياد ذلك السوق.

فقال الزوج : "إذن، عليك أن تحضّري نفسك بسرعة لننطلق حالاً ! واعلمي أننا سنذهب سيراً على الأقدام لأن الأحصنة في المرعى . وإذا سلكنا الدرب الجبلي سنتمكن من الوصول في الوقت المناسب."

لم تمض بضعة دقائق إلا وكانت زوج المزارع تقف سعيدة عند مدخل بيتها بعد أن ارتدت أفضل ثوب لديها، وقد نسيت أمر البديل تماماً.

لكنها سرعان ما قالت لنفسها : "ولكن، ماذا لو كان زوجي يحاول أن ينصب لي شركاً لأغادر المزرعة حتى يتمكن عمال المزرعة من ذبح الترول أثناء فترة غيابي؟"

وهكذا، دخلت البيت بسرعة ثم عادت وهي تحمل الصغير الضخم بين ذراعيها!

فقال الزوج معترضاً : "ألا تستطيعين ترك هذا المخلوق في البيت؟" إلا أن صوت اعتراضه كان مشرّباً بالرقة أكثر من الغضب.

أجابت : "لا، لا أجرؤ على تركه."

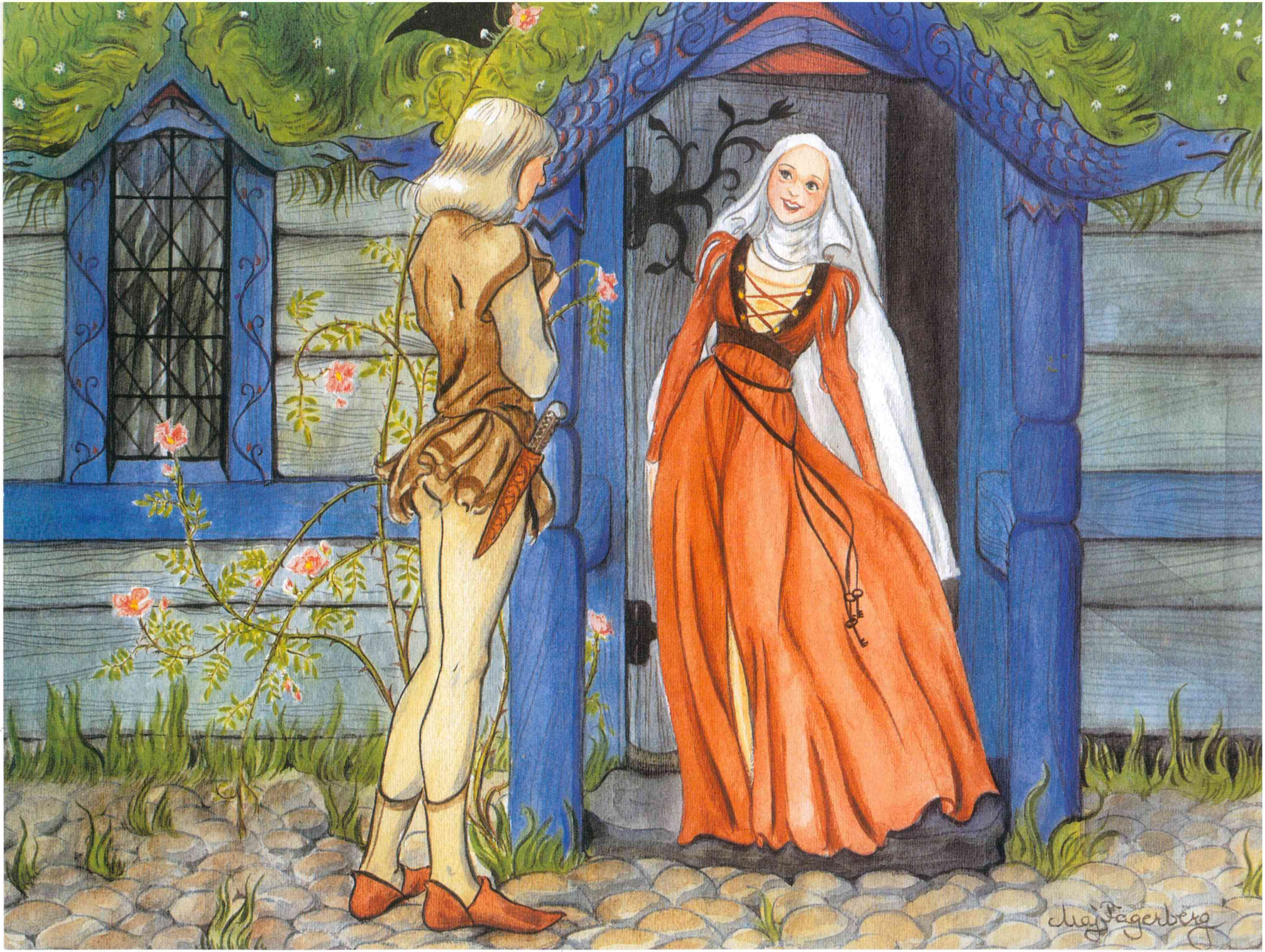
قال المزارع : "حسناً، كما تشائين ، ولكنه سيكون حملاً ثقيلاً عليك أثناء صعودنا الجبل."

باشر الزوجان رحلتهما التي سرعان ما صارت رحلة شاقة لأن الدرب الجبلي كان شاهقاً ووعراً. وبلغ التعب بزوج المزارع مبلغه حتى صارت كلما خطت خطوة وجدت صعوبة شديدة في أن تخطو خطوة أخرى. وحاولت إقناع الترول الصغير بالسير على قدميه ولكنه رفض. أما زوجها فقد كانت معنوياته عالية جداً وبدا أكثر لطفاً معها مما كان عليه منذ أن فقدا ابنهما.

بعد فترة من الوقت التفت المزارع الى زوجه وقال : "ناوليني البديل، ودعيني أخفف عنك الحمل قليلاً."

فردت : "لا، لا، أستطيع تدبّر أمري ، لا أريد أن أثقل عليك بهذا الطفل الشقي."

أجابها المزارع وهو ينتزع الطفل من بين ذراعيها : "وما الذي يجبرك على تحمّله وحدك؟"


May Fagerberg

كان الدرب في ذلك المكان نفسه، حيث انتزع المزارعُ البديل، قد بدأ يصبح أكثر وعورة. إذ انبثق عالياً على امتداد حافة الجبل، وأشرف مباشرة على وادٍ سحيق الأغوار، وبلغ به الضيق درجة لم تكن تسمح للمرء إلا بوضع قدم واحدة عليه في الخطوة الواحدة.

فجأة توجّست زوج المزارع شراً، وشعرت أن شيئاً ما سيصيب زوجها أثناء حمله للترول الصغير، لانها لاحظت انه كان يمشي بتهوّر وبأسرع مما ينبغي له.

فصاحت به : "تمهّل في سيرك هنا!" ثم وبعد مضي فترة وجيزة تعثّر المزارع وأوشك على إسقاط الطفل في الهوة السحيقة.

فما كان من زوجه الا ان قالت لنفسها : "لو وقع الطفل فعلاً لتخلصنا منه إلى الأبد." ولكنها في نفس اللحظة أدركت أن زوجها كان ينوي بالفعل رمي البديل في الهوة ثم الادّعاء بعد ذلك أن الواقعة حدثت قضاءاً وقدراً. فغمغمت :

"هذه هي الحكاية إذن، لقد دبّر كل هذه المسألة حتى يستطيع التخلص من الترول بدون أن ألاحظ أنه فعل ذلك عامداً. حسناً، أظن أني إذا تركته يفعل ما يرغب في فعله سيكون ذلك لصالحنا."

مرة أخرى تعثّر زوجها بحجر، ومرة أخرى كاد البديل ينزلق من بين ذراعيه فقالت زوج المزارع : "ناولني الطفل فانت على وشك الوقوع أرضاً."

فردّ قائلا : "لا ، سألتزم جانب الحذر."

عندما تعثّر للمرة الثالثة، مدّ ذراعيه الاثنتين ليتشبث بفرع شجرة، وترك الطفل يفلت منه. لكن زوجه اندفعت إلى الأمام، وتمكنت من التقاط طرف سترة الترول، ثم سحبته نحوها.

عندها التفت المزارع إلى زوجه، وقد بدا وجهه في تلك اللحظة بشعاً وكالحاً، وصاح عليها غاضباً: "أنت لم تكوني على مثل هذه السرعة عندما تركت ابننا يفلت منك في الغابة."

لم تفه الزوج بكلمة واحدة، ولكنها سرعان ما أجهشت بالبكاء حزناً نتيجة إدراكها أن ملاطفة زوجها لها لم تكن إلا ملاطفة مزيفة.

فعنفها المزارع قائلا : "لماذا تبكين الآن؟ إنها لن تكون مأساة رهيبة جداً لو أني تركت البديل يسقط في الهوة. هيا، أسرعي الآن وإلا سنتأخر كثيراً".

"ما عدت أشعر بالرغبة في الذهاب إلى السوق."

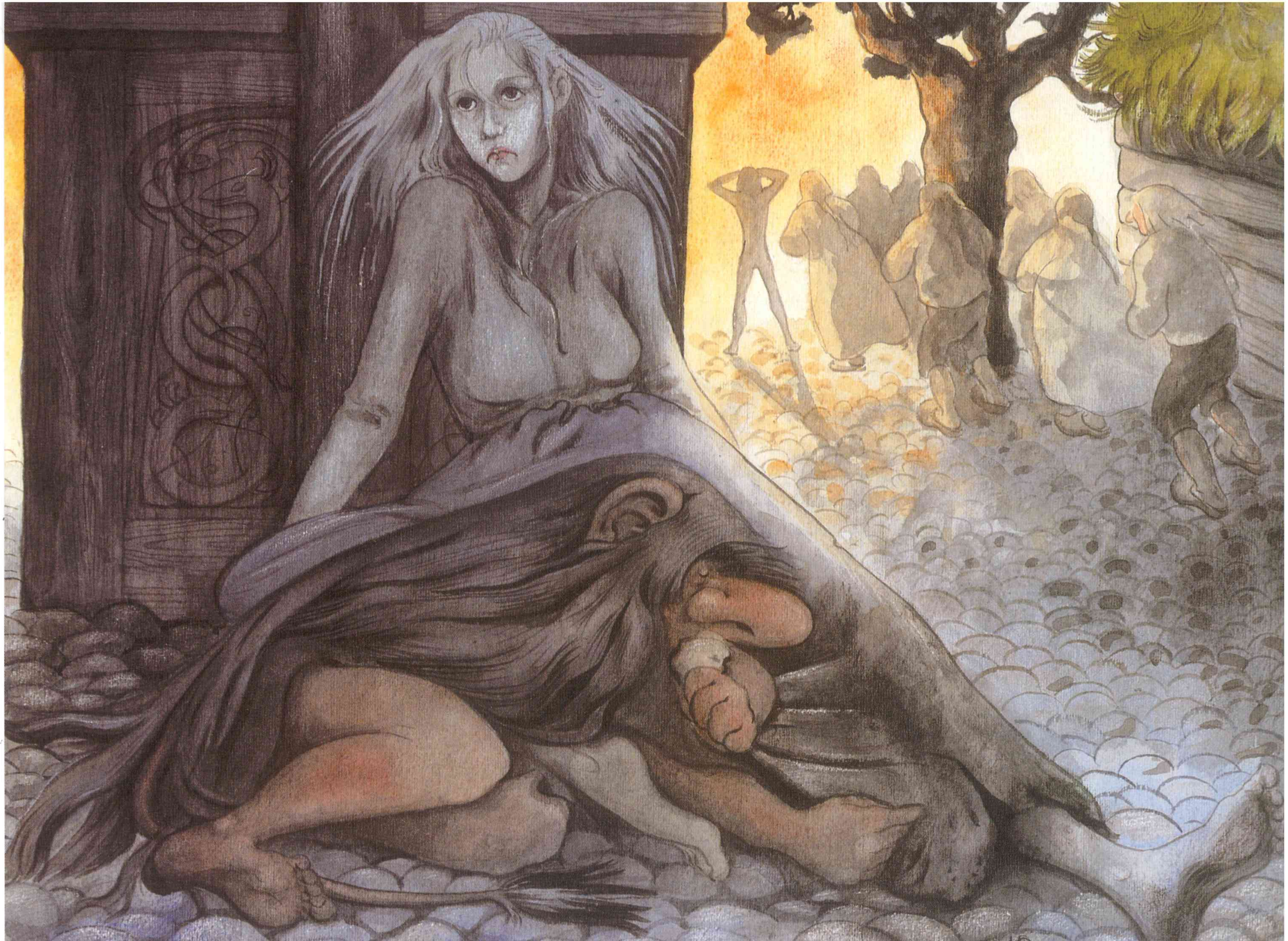
"ما عدت تشعرين بالرغبة في ذلك؟ حسناً، ولا أنا."

أثناء طريق العودة إلى البيت، أخذ المزارعُ يتساءل في ما بينه وبين نفسه عن المدة التي سيستطيع خلالها متابعة حياته بنفس



هذه الطريقة. ورأى أنه لو حاول في تلك اللحظة استعمال القوة مع زوجه وانتزاع الطفل من بين ذراعيها لربما استطاعا أن يعودا سعيدين معاً كما كانا.
وكاد يهمّ بالتعارك معها فعلاً، إلا أنه عندما رأى عينيها وهما تنظران إليه بالتياع وقلق، كبح جماح نفسه مرة أخرى من أجلها. وهكذا، بقي كل شئ كما كان عليه.
مرت سنتان أخريان على ذلك الحال إلى أن حدث أن هبّت النيران بالمزرعة في ذات ليلة من ليالي الصيف. وعندما استيقظ الخدم النائمون حول الموقد في الغرفة الصغيرة كان الدخان يملأ البيت كله وكانت سقيفة البيت أشبه ببحر هائل من اللهب. لذلك بدا من المستحيل على أي شخص ولو مجرد التفكير بمحاولة إخماد النيران أو إنقاذ أي شئ من ممتلكات الدار. وما كان يمكن عمل شئ سوى تجنب الموت حرقاً بالاندفاع خارج البيت حالاً.
وقف المزارع يراقب بيته المشتعل بالنيران وصاح غاضباً:
"هناك شئ واحد أرغب في معرفته، وهو: من هذا الذي جلب لي سوء الطالع؟"
قال أحد العمال: "عجباً، ومن يستطيع ذلك سوى البديل؟ كان يجمع العيدان والقش منذ وقت طويل ويحرقها داخل البيت وخارجه."

وقالت إحدى الخادمات: "رأيته أمس يحمل حزمة من أغصان الأشجار اليابسة إلى السقيفة، وكان على وشك إضرام النار فيها عندما ضبطته ومنعته."
فهتف المزارع: "يا ليته يحترق حتى الموت في الداخل، عندها لن أمانع أن تأكل النيران بيتي الغالي."
ما إن قال المزارع هذا الكلام، حتى رأى زوجه تندفع خارج البيت وهي تجرّ الترول الصغير خلفها، فأسرع نحوها، وانتزع البديل منها، ثم رفعه عالياً في الهواء وقذفه نحو البيت المتأجج باللهب. حملقت زوج المزارع بزوجها لبرهة، وقد اعتراها فزع مخيف، ثم استدارت وهرعت إلى البيت بحثاً عن الطفل.
"يمكنك أن تحترقي معه!" صاح زوجها من الخلف.
ولكنها عادت سالمة وهي تحمل الترول وقد تفحمت يداها واحترق شعرها. ولم يفه أحد من الناس بكلمة عندما توجهت نحو البئر وقامت بإخماد الشرر الذي عسعس على حاشية ثوبها، ثم جلست أرضاً وأسندت ظهرها إلى حافة البئر، ثم مددت الصغير في حضنها وتركته يغفو.
لازمت المرأة مكانها مشدودة الأنفاس، وراحت تحدق في الأفق البعيد بحزن. وعلى الرغم من أن عدداً كبيراً من الناس كانوا يهرعون مسرعين ويعبرون من أمامها في طريقهم نحو البيت المشتعل بالنيران إلا أن أحداً منهم لم يوجِّه إليها كلمة واحدة.



ما كاد النهار يطلع حتى وكان البيت قد احترق عن بكرة أبيه. عندها اتجه المزارع نحو زوجه وقال لها: "ما عدت أستطيع تحمّل هذا الوضع أكثر من ذلك. اعلمي أنه ليس من السهل علي تركك، ولكني ما عدت بقادر على متابعة الحياة مع هذا البديل. إني راحل الآن في حال سبيلي، ولن أعود أبداً."

سمعت المرأة الكلمات التي قالها لها زوجها، وراقبته وهو يستدير ويمضي مبتعداً، وأرادت اللحاق به، غير أن الترول الصغير كان يرقد بكل ثقله في حضنها، ولم تجد في نفسها القوة لتزيحه، فبقيت قابعة في مكانها.

يمّم المزارع شطر الجبل، قائلاً لنفسه أنه ربما كان يسلك هذا الدرب لآخر مرة في حياته. لكنه، ما كاد يسير مسافة قصيرة حتى وقع نظره على صبي يافع يتجه نحوه راكضاً. كان الصغير وسيماً وفارعاً كأنه غرسة يانعة. وكان شعره ناعماً كالحرير وعيناه لامعتان يشعّ منهما وميض يشبه وميض الفولاذ.

تمتم المزارع لنفسه : "يا حسرتي، كان ابني سيبدو مثل هذا الصبي لو أنه لم يُسرق مني!"

ثم قال للصبي محييا : "أسعد صباحك يا بني، إلى أين أنت ذاهب؟"

أجابه الصبي : "أسعد صباحك أنت أيضاً! وإذا استطعت أن تعرف من أنا، فسأخبرك إلى أين أنوي الذهاب."

عندما سمع المزارع صوت الطفل امتقع لونه.

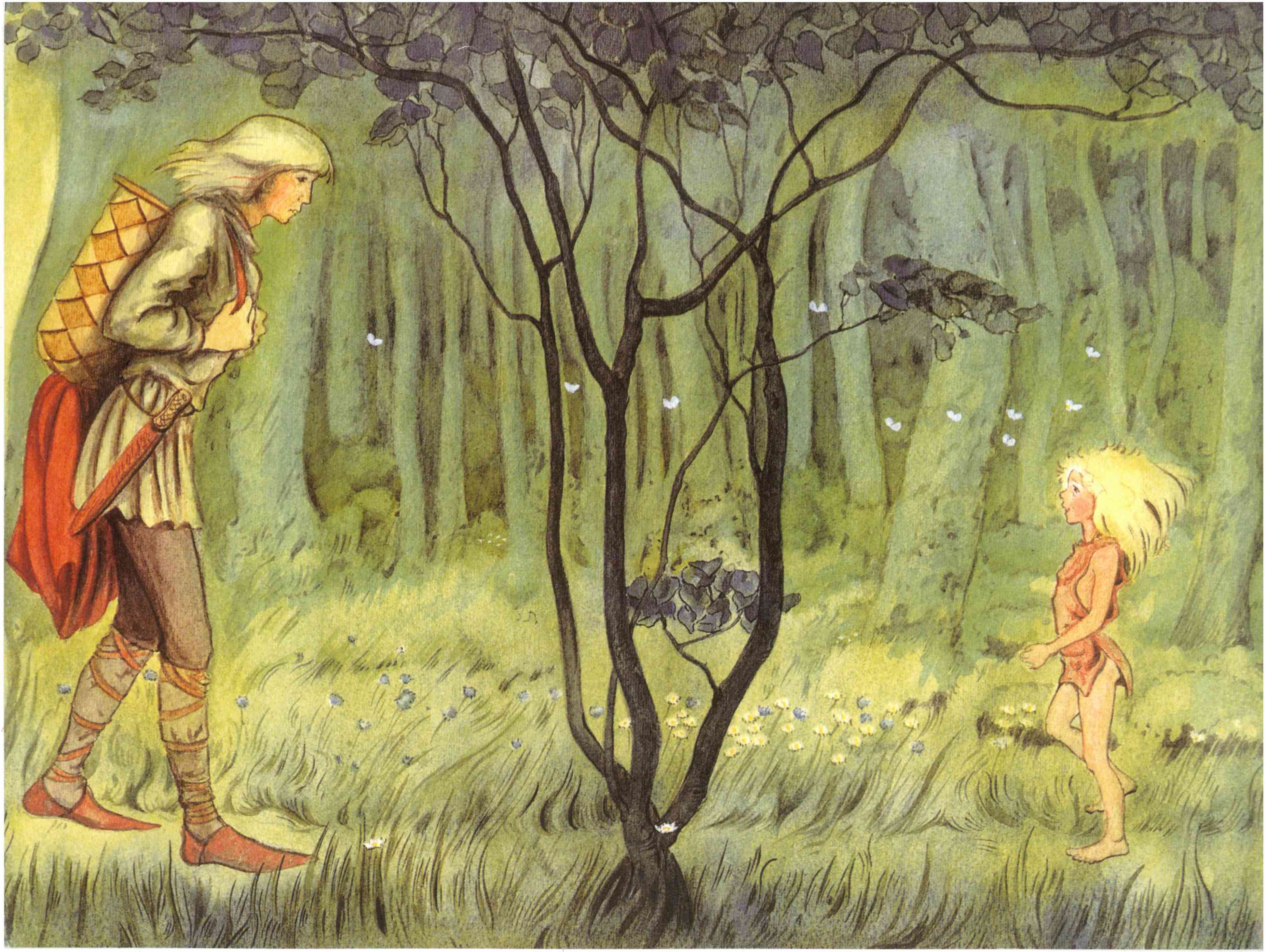
فقال المزارع : "إنك يا صغيري تتكلم بنفس اللهجة التي يتكلم بها أهلي، ولو لم يكن ابني مع جماعة الترول لقلت إنك هو."

ضحك الصبي وقال : "لقد أصبت يا أبي. وبما أنك أصبت، فاعلم أني في طريقي إلى رؤية أمي."

فصاح المزارع : "أمك؟ أوه، لا.. لن تفعل هذا، إنها لا تكترث بك أو بي، وهي لا تُضمِر الحب لأي مخلوق سوى لطفل ضخم وقبيح من أطفال جماعة الترول."

فما كان من الصبي الا ان قال وهو يمعن النظر في عيني والده : "أ صحيح ما تقوله يا أبي؟ إذن، ربما يجدر بي البقاء معك."

فرح المزارع باسترجاعه لابنه فرحاً عظيماً لدرجة أن الدمع ترقرق في عينيه. "نعم، ستبقى معي أنا وحدي!" قال وهو يأخذ الصبي بين ذراعيه ويرفعه عالياً في الهواء. ونظراً لأنه شعر بالخوف الشديد خشية أن يفقد ابنه مرة أخرى، تابع طريقه وهو يضمُّ الطفل إليه بكل قواه. ولكنهما ما كادا يبتعدان قليلاً حتى بدأ الصبي بالكلام :



"إنك لن تعاملني بنفس القسوة التي عاملت بها بديلي، أليس كذلك يا أبي؟"
سأله المزارع : "ماذا تقصد؟"
"حسناً، في ذات يوم من الأيام كانت أم الترول الصغير تمشي في الناحية الأخرى من طريق الجبل المطلّ على الوادي وهي تحملني بين ذراعيها، وكانت كلما رأتك تتعثر في طريقك وتوشك على إفلات ابنها من بين ذراعيك تهمّ بقذفي إلى قعر الوادي."
فهتف المزارع بصوت قلق : "ماذا تقول؟؟ كنتما هناك في الناحية الأخرى من الطريق الجبلي المطلّ على الوادي؟"
قال الصبي : "لم أشعر في حياتي بالخوف الذي شعرته في ذلك الوقت يا أبي. وعندما أفلتَّ الترول الصغير وتركته ليهوي إلى قاع الوادي، أوشكت أنثى الترول على قذفي أنا أيضاً.. لولا.. لولا فضل أمي..."
خفف المزارع من خطواته، وأخذ يحاول استيعاب كلام الطفل، ثم قال : "يجب عليك أن تخبرني كيف كان جماعة الترول يعاملونك."
أجاب الصبي الصغير : "عانيت في بعض الأحيان، ولكن أم بديلي كانت تعاملني بلطف كلما عاملت أمي الترول الصغير بلطف."

سأله المزارع : "هل ضربتك؟"
"ليس إلا بقدر ما ضربت ابنها."
سأله الأب : "هل كانت تهتم بتغذيتك تغذية جيدة؟"
"عندما كان الترول يُعطى الخبز واللحم كانت أنثى الترول تقدّم لي الأفاعي والأشواك. في البداية كدت أهلك جوعاً. ولكن، عندما أطعمت أمي البديلَ الضفادع والفئران حصلتُ على الخبز والزبد... ولولا .. لولا فضل أمي لكنت..."

عندما قال الطفل ما قاله، استدار المزارع على عقبيه وبدأ يغذّ في السير عائداً إلى الغور، ثم سأل ابنه فجأة: "لماذا تنبعث منك رائحة دخان؟"
أجاب الصبي : "حسناً، لا غرابة في هذا، لقد قُذفت في النار ليلة أمس.. ولولا.. فضل أمي لكنت..."

صار الأب في عجلة من أمره حتى أخذ يجري في طريقه جرياً، ثم عاد وتوقف على حين غِرّة وقال: "لكن أخبرني الآن، لماذا قررت أنثى الترول إطلاق سراحك؟"
أجاب الصبي : "عندما ضحّت أمي بما هو أغلى على قلبها من الحياة نفسها ما عاد لجماعة الترول من سلطة عليَ فأطلقوا سراحي."



سأله المزارع : "ضحّت بما هو أغلى على قلبها من الحياة نفسها؟"

أجاب الصبي : "نعم، وذلك لمّا تركتك ترحل حتى لا يصيب بديلي أي مكروه."

كانت زوج المزارع ما تزال تجلس متسمّرة عند البئر كأنها قد تحولت إلى قطعة من حجر. لم تكن تستطيع تحريك ساكن، ولم تكن ترى سوى القليل مما يجري حولها. فجأة، تناهى إليها صوت زوجها وهو يناديها باسمها، وبدأ قلبها يخفق من جديد، ففتحت عينيها ملياً ونظرت حولها، ورأت أن اليوم الجديد يبدو بهياً وصافياً، تغمره الشمس الساطعة ويؤنسه صداح البلابل. غير أنها ما إن أبصرت البيت الذي تناثرت دعائمه المحترقة في كل مكان حولها، وشاهدت الناس بأيديهم المتفحمة ووجوههم الكالحة، حتى أدركت أنها قد عادت إلى حياة أكثر شقاءً من حياتها السابقة، لكنها في الوقت عينه شعرت بأن معاناتها قد بلغت حدها النهائي. وعندما بحثت بعينيها عن البديل الذي لم يكن في حضنها، لم تعثر له على أثر.

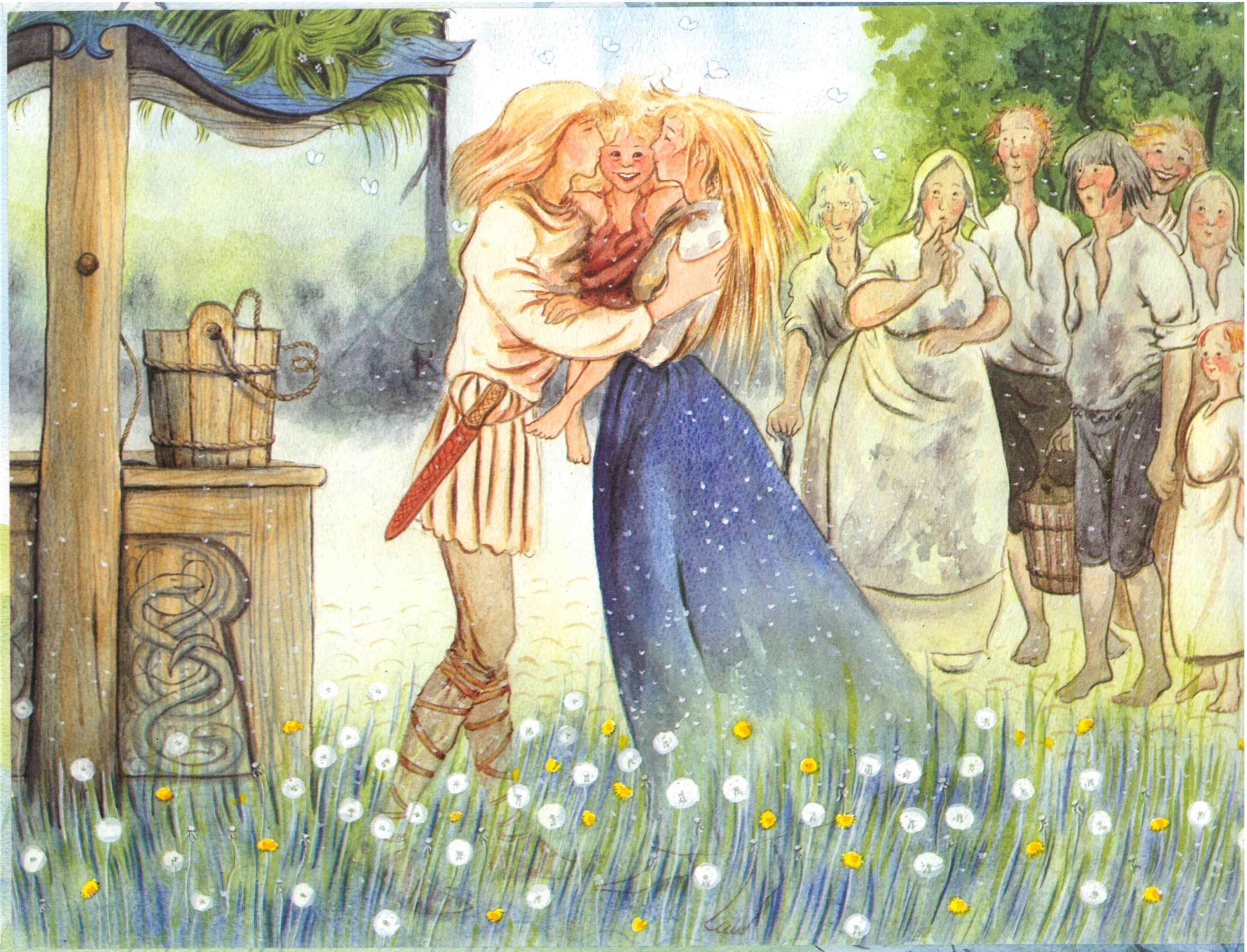
مرة أخرى، سمعت زوجها يناديها، ثم لمحته وهو يخرج من الغابة عند أسفل الدرب الضيق المؤدي إلى المزرعة. لكنها لم تعد تستطيع رؤيته بعد ذلك لأنه احتجب بين جموع الخدم والجيران الذين ساعدوا في إخماد النيران وأسرعوا إليه وأحاطوا به من كل جانب. كل ما قدرت عليه هو سماع صوته الذي استمر يهتف باسمها.

وعلى الرغم من إحساسها بأن صوته كان مليئاً بالفرح العظيم، لم تجرؤ على مغادرة مكانها، فبقيت جالسة حيث هي بدون حراك.

أخـــيراً..

أخيراً استطاع زوجها أن يخترق الحشد المتجمع حوله، ثم تقدّم نحوها، ووضع طفلاً جميلاً بين ذراعيها وهتف بسعادة:

"هـاهـو ابننا يا زوجي الغالية، لقد عاد إلينا أخيراً. والفضل في إنقاذه يعود إليك أنت، أنت وحدك، ولا أحد غيرك."



هذه هي النسخة العربية الاولى من قصة البديل
للكاتبة سلمى لاغرلوف، المرأة الاولى التي نالت
جائزة نوبل للاداب سنة 1909. مارست سلمى
مهنة التعليم لمدة عشر سنوات قبل ان تنصرف الى
الكتابة وابدعت حوالي ثلاثين رواية للكبار ، أما أعمالها
للأطفال فمنها: مغامرات نيلز الرائعة، التي
بالاضافة الى اعتبارها من أهم الكتب الجغرافية التعليمية.
تعد واحدة من الاعمال الكلاسيكية الشهيرة.
توفيت سلمى لاغرلوف سنة 1940 .



دار المنى
ISBN 91 88356 45 0